كيف نفهم التوحيد؟

بقلم

محمد أحمد باشميل

١٤٠٦هـ





بسم الله الـرحمن الـرحيم ، والصـلاة والسـلام على خاتم الأنبيـاء والمـرسلين وبعـد : فإن الله تعالى لم يخلق الخلق ولم يرسل الرسل إلا ليعبدوه وحده قال تعالى : **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** .

ومن المؤسف المبكى ان عامـة المسلمـين من الجهـال لا يعرفون المعنى الحقيقى للعبادة فيتوجهون بها إلى غير الله تعالى (جهلا) فيقعون فى الشرك . المخرج من الملة .

وذلـك حين يتـوجهـون فى خشيـة وخضـوع إلى المقبورين من الأنبياء والأوليـاء والصـالحـين بالـدعـاء والاستغاثة والذبح والنذور ويطوفون بالقبور والتوابيت (تعظيما) كما يطوفون بالكعبة المشرفة . وهذه هى العبادة وان أسموه تبركا وتوسلا .

وإذا كان الجهلة من العامة يرتكبون هذا الشرك عن جهل وعدم ادراك وفهم لمفهوم العبادة . ان هؤلاء قد يكون لهم بعض العذر لجهلهم .

ولكن ما عذر العلماء الكبـار الـذين يعـرفـون المعنى الحقيقى للعبادة . ويعلمون فى قرارة أنفسهم أن ما انغمس فيه العامة هو شرك أكبر مخرج من الملة .

ويصـدرون الفتـاوى بأن ما يرتكبـون من الشـرك القـولى والفعلى والاعتقادى هو توسل مطلوب وتعبير عن محبة الأنبياء والصالحين .

ثم انهم هم لتعميق الشـرك فى قلوب العـامـة الـذين يتخـذونهم قدوة يأتون الاعمال الشركية فى الموالد والحوليات المبتدعة وغيرها .

ألا يتقى الله هؤلاء العلماء الذين يكتمون الحق ويشجعون على الكفر .

أمن أجل دريهمات بخسة أوجاه زائل يرتكبون هذه الجرائر فى حق أنفسهم وفى حق العامة .

إن هذا النوع من العلماء هم الضالون المضلون .

وبعد أيها القارىء الكريم :

فإنني لما كنت ممن يعلم هذه الحقائق المروعة المتمثلة فى تفشي الشرك الأكبر بشكل مخيف في مختلف أنحاء العالم الإسلامى .

فإنى استخرت الله تعالى واتكلت عليه .

فأصدرت هذه الرسالة بعنوان «كيف نفهم التوحيد» .

راجيا من الله تعالى أن يتقبلها منى . . . وأن ينفع بها عباده الذين ضلوا عن علم أوعن غير علم .

إنها مني محاولة متواضعة لاخراج من يريد الله تعالى اخراجه . من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد .

انه نعم المولى ونعم النصير . . .

ستنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهليـة . . .

«عمر بن الخطــاب»

كان على جانب كبـير من التـديُّن، ومـع وداعتـه ودمـاثة خلقه، كان صريحا إلى أبعد الحدود .

وكنت معـه دائـماً على وفـاق تام، لم نختلف إلا فى ناحية واحدة، هى ناحية التوسل بالأموات ودعائهم والاستغاثة بهم من دون الله والذبح والنذر لهم .

فقــد كانت هذه الأمـور مثـار جدل بينى وبينـه، وكـان يبـدو لي (من حديثه) انه ـ كغيره ـ يرى أن كل ذلك جائز (على الأقل) إذا لم يكن مستحبا .

وذات يوم، **قال لي** : أنت تعلم أننى لم أدع أحـداً غير الله ولم أتـوسـل إلى الله تعالى بغير عملي .

فقلت له : اعلم هذا وهـو الـذى يجعلنى أطمـع فيـك وأتـوسم فيك الخير، لأن عاقلا مثلك يجب أن لا تغيب عنه مفاسد مثل هذه الحماقات التى يرتكبها المغفلون من ضحايا سدنة القبور وتجار الأضرحة .

هل دعاء الأولياء من دون الله كفـر ؟

قال : ولكننى مع هذا (كما قلت لك أكثر من مرة) لم أهضم ولم أستسغ

(إلى الآن) أن دعـاء الأمـوات والاستغـاثـة بهم (وخـاصـة الأوليـاء والأنبياء والصالحين) شرك مخرج من الملة، مادام ان المستغيثين والمتوسلين لا يعتقدون فيهم القدرة على الضر والنفع والخلق والايجاد والاحياء والإماتة وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله .

ولطـالمـا دار النقـاش بيني وبينه، إلا انه (غالباً) ما يكون نقاشاً قصيراً غير عميق بحيث لم يستطع أحدنا اقناع الآخر .

قال لى مرة :

هل لك، أن نضـع المـوضـوع على بسـاط البحث (وبكـل صراحة) نتنـاولـه من جميع نواحيه، بشرط أن نحزم عواطفنا وندعها جانبا، لأن الناس لا يضلون السبيل إلا حيث تتحكم فيهم العاطفة ويتمكن من قيادهم الهوى ؟؟

فقلت له : هذه، والله، هى اللحظة التى طالما تمنيتها، لأننى حريص على أن أكشف لك غوامض ومعميـات، هى السبب فيـما أنت فيه من حيرة وتردد، ولذا تجدنى سعيداً بالتعمق معك فى بحث هذا الموضوع .

قال : عظيم جداً. . . وأردف قائلاً :

ما هوموقفكم (بـالضبـط) من هذه المسألـة ؟ ومـا هى الأدلة القطعية التى تستنـدون إليهـا فى تكفـير الـذين يسلكـون ذلك الطريق ـ طريق دعاء الأموات والاستغاثة بالأنبياء والصالحين والذبح والنذر لهم ـ وتحكمون عليهم بالخروج من الملة ؟؟؟

فقلت له : موقفنـا من هذه المسألـة هوتبـع لموقف القـرآن الكـريم،

وحكمنا هذا ليس رأياً رأيناه وليست نظرية ابتدعناها، وإنما هو امتداد لحكم هذا الكتاب الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فالقــرآن الكـريم (لا نحن) هو الـذى حكم على هؤلاء القبـوريـين بالكفر وأدانهم بالشرك .

فقال لى : (فى هدوئه المعروف) لا داعى لتكرار هذا القول المجمل، فأنا أعرفه عنكم، وهو لا يزال فى نظرى مجرد دعوى، والدعوى بدون دليل لا تقبـل، فما هو الـدليـل المفصـل المقنع ؟! ان الموضوع أكبر وأخطر من ارسال الكــلام على عواهنـه، فأنتم بإقـدامكم على تكفـير المسلمـين بمثـل هذه السرعة واللامبالاة، قد أحدثتم فتنة عمياء بين المسلمين لا يزالون يخُبُّون فى غمارها حتى الآن .

تمويـه القبوريـيــــن :

فقلت له : أنتم لا تزالـون واقعـين تحت تأثير دعايات مضللة كبيرة، فهي التى سدت عليكم منـافـذ التفكـير وجعلتكم تعتقدون فينا ما تعتقدون وتظنون بنا ما تظنون. . .

وعلى العمـوم فأنتم أحـرار، ولكـم أن تسموا ما قمنا ونقوم به فتنة، أو تهوراً أو تسرعاً، أو أى شىء آخر يحلو لكم .

غير أن هذا كله لا يغير من الحقيقة المشرقة شيئاً، وهى اننا قوم نظرنا فى كتاب الله تعالى وتدبرناه كما أمرنا الله أن نتدبر .

فأبصـرنـا وصفـاً وصف الله به المشـركين الأولين، ينطبق (تماما) على هؤلاء القبوريين الذين يدعون الأموات ويستغيثون بهم ويتضرعون إليهم،

ويشركونهم مع الله فى النسك والنذر، فلم نتردد فى التنبيه والتبيين، ولم نتهيب أحداً عندما أعلنا ما وصل إليه علمنا، فقلناها صريحة، ورمينا بها بين أكتاف المكابرين، ولا يهمنا رضى الناس عنا أم غضبوا علينا .

فما كان رضى النـــاس (فى يوم من الأيـام) مقيـاســاً للحق، وغضبهم معياراً للباطل .

شبه المشركين والقبوريين ونقضهـا :

أمـا الـدليـل على ما نقـولـه وندين الله به (فى هذه الناحية) فعليك أن تصغى إليه فى التفصيلات الآتية :

أولا : أنتم ترون أن دعـاء الأمـوات والاستغـاثـة بهم والتقرب إليهم بالـذبـح والنذر ليكونوا شفعاء ووسطاء إلى الله، كل ذلك ترون انه ليس من الشرك ولا من الكفر، مادام ان القائمين به يؤمنون بالله ربا وأنه لا خالق ولا رازق ولا محيى ولا مميت إلا هو سبحانه وتعالى، ويعتقدون ان من يدعون من دونه لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا .

ولكن الواقع يثبت أن هذه نظرية خاطئة، والتحليل هذا تحليل فاسد ينـاقض أصـول الإسـلام منـاقضة تامة، وسيتضح لك ذلك جليا فيمايلى إن شاء الله .

حقيقة الصراع بين الأنبياء والمشركين :

فالمتتبع للصراع الذى كان ناشباً بين الأنبياء (وخاصة نبينا محمد ﷺ) وبين المشركين الأولين، يجد أن سببه ومداره ليس إنكار أولئك المشركين لوجود الله سبحانه وتعالى وعدم إيمانهم به .

وليس مبعثـه عدم تسليمهم بأنـه جل وعلا ، بيده ملكوت كل شىء ، وليس مثـاره اعتقـاد أولئك المشركين ان من يدعون من دون الله يشاركون الله فى جلب نفـع أو دفـع ضر، فكـل شىء من ذلـك لم يخطـر على بال أحد من أولئك المشركين ولم يعتقد أحد منهم شيئاً منه البتة .

إيمـــان المشركين بالله :

فقد كان هؤلاء المشركون يؤمنون بوجود الله إيماناً جازما ويوحدونه فى الربوبية توحيداً كاملا لا تشوبه أية شائبة ، أى أنهم كانوا يعتقدون أنه تعالى ربهم ورب كل شىء وان من يدعـونهم من دونـه من الآلهـة والأنبياء ليسوا إلا بعضاً من عبيده وخلقه لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وان الضر والنفع والمـوت والحيـاة بيـده وحده سبحانه وتعالى لا يشاركه فى ذلك ولا يظاهره أى مخلوق من مخلوقاته .

هكـذا كان إيـمان المشـركـين الأولـين بربهم ، وهكذا كانوا يوحدونه فى الـربـوبية هذا التوحيد الخالص الذى يقصر دونه (اليوم) توحيد القبوريين من عبـاد الأوليـاء الـذين لا يلجأون إلى أوليائهم من الميتين ـ سكان الأضرحة ـ مستغيثين ومستنجدين بهم وضارعين إليهم ، إلا عند الشدائد .

عكس ما كان يفعله المشـركـون الأولـون الـذين لا يدعون آلهتهم من الأولياء المتمثلين فى تماثيلهم وأنصابهم إلا حيث لا يكون ضيق ولا شدة ، أما فى الضيق والشدة ، فهم لا يلجأون إلا إلى الله وحده لا شريك له وهنا ثارت ثائرة صاحبي **وقال** (فى احتجاج ظاهر) : عجيب، وغريب، وكيف، وكيف ؟!

توحيد أبى جهل وأبى لهب :

أبـو جهـل وأبـو لهب ومن على دينهم من المشركين ، كانوا يؤ منون بالله ويوحدونه فى الربوبية خالقاً ورازقاً ، محييا ومميتا ، ضاراً ونافعاً ، لا يشركون به فى ذلـك شيئـاً ؟؟ عجيب ، وغـريب ، أن يكـون أبـو جهـل وأبـو لهب ، أكثر توحيـداً لله وأخلص إيـمانـاً به من هؤلاء المسلمين الذين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ؟؟ ، ما هذا يارجل ، كيف تجرؤ ون على التصريح بمثل هذا الكـلام الخطـير ، الـذى هو وأمثـالـه مما تغـالون فيه هو الذى جعلكم أعداء للملايين من المسلمين فى العالم ؟

فقلت له : ليس هذا عجيبـا ولا غريبـا ، بل هذا هو الـواقـع الـذى ستعـرفـه وستسلم به (إن شاء الله) عنـدمـا تنكشف لك الحقـائق جليـة ، وتنتصب أمـامـك الأدلة مشرقة واضحة ، وعندها سيزول (بإذن الله) ما علق بذهـنـك ، وسـتتخلص مما رسب فى عقلك من رواسب المغـالطـات التى تغالطون بها أنفسكم وتظنونها حججا وبراهين .

الدليل على توحيد المشركين وإيمانهم بالله :

فقـال : الـدليـل ياصاحبى ، ما هو الدليل على هذا الذى تزعمونه ؟ وإذا كان ما تقـولـونه صحيحاً من أن المشركين الأولين كانوا يؤ منون بالله هذا الإيمان ، فما هو الشرك (إذن) الذى نعاه الله عليهم وكتب لهم بسببه الخلود فى النار ، بعد أن أحل دماءهم وأموالهم وأمر نبيه أن يجالدهم بالسيوف ويطاعنهم بالرماح ؟

فقلت له : وهل غير القرآن مصدر لهذا الدليل . . . إن الدليل فى هذا الكتاب الخالد الذى تعبد الله أنت وملايين البشر ممن على رأيك، من المنتسبين إلى الإسلام بتلاوته صباحا ومساء، ولكن دون أن تكتشفوه فتفهموه .

اعتراف المشركين بأن الله وحده الخالق الرازق المحيى والمميت :

فقد قال تعالى مؤكدا إيمان أولئك المشركين الأولين به سبحانه وتعالى ، رباً خالقاً ورازقاً ، ومحيياً ومميتاً ، ضاراً ونافعاً، قال تعالى لنبيه محمد «ﷺ» فى حق هؤلاء المشركين :

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنَّ الله فأنى يؤفكون﴾ ، ﴿ولئن سألتهم من نَزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ . (العنكبوت ٦٣) ، **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾** . (المؤمنون . الآيات : ٨٤-٨٩) .

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ . (يونس : ٣١) .

فهـذه الآيـات البينـات (يـاصـاحبى) هى دليلنا الذى لا يقبل الجدل على أن المشركين الأولين ما كانوا يكفرون بوجود الله ، وما كانوا يعتقدون ان له شريكا يشاركه التصرف فى شىء من ملكه بل كانوا يوحدونه (فى الربوبية) توحيداً كاملاً .

فصح بهذا يقيناً، انهم ما كانوا يلجأون إلى أوليائهم (عندما يدعونهم) ليهبوا لهم حياة أو يدفعوا عنهم موتا أو ينزلوا لهم غيثاً .

وما كانوا يتقربون إلى آلهتهم ممن اتخذوا من الأولياء ليكتبوا لهم سعادة أو يمحوا عنهم شقاء، وكيف يصدر منهم مثل هذا، وهم الذين كانوا يؤمنون إيمانا جازماً بأن هذا كله إنما هو من اختصاص ربهم وحده الذى بيده ملكوت كل شىء ؟؟ كما قررت هذه الآيات .

فعلى ضوء هذا الدليل الدامغ ، يتضح لكم بطلان هذا الشرط الهزيل الذى تتمسكون به حين تعتقدون أن من يدعو غير الله لا يكون مشركا إلا إذا اعتقد ان الضر والنفع بيد من يدعوه كما يعتقد فى الله .

ولـو كان هذا الشـرط صحيحا ، وما تدعونه (فى نظر الإسلام) سليما لما حكم الله على أبى لهب وأبى جهل وحزبهم بالشرك. لأن هذا الشرط الذى تشترطونه متوفر فيهم ، لأنهم كانوا لا يعتقدون ان الضر والنفع بيد من يدعونه كما يعتقدون فى الله ، وقد فصل القرآن ذلك عنهم فى الآيات السابقة .

المشركون الأولون كانوا أكثر إيماناً من مشركى هذا الزمن :

أما الدليل على أن توحيد المشركين الأولين وإيمانهم بربهم ، كان أقوى من توحيـد القبـوريـين وإيمانهم فى هذا الزمن فهو أيضاً من القرآن ذلك الكنز

الذى لا ينفد والنور الذى لا يخبو، فقد قال الله تعالى فى حق أولئك المشركين :

﴿فــإذا ركبــوا فى الفلك دعــوا الله مخلصــين له الــدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ . (العنكبوت : ٦٥) .

﴿وإذا مسكم الضـر فى البحـر ضل من تدعـون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾ . (الاسراء : ٦٧) .

﴿قـل من ينجيكم من ظلمات الـبر والبحـر تدعـونه تضرعاً وخفيـة لئن أنجـانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ . (الأنعام : ٦٣-٦٤) .

فهـذه الآيـات تثبت أن أولئـك المشـركـين إذا ركبوا فى البحر وتعرضوا للخطـر فتـوقعـوا نزول قارعـة نسـوا آلهتهم من الأولياء وغيرهم وكفروا بهم ، وأخلصوا الدين لله وحده، وتوجهوا إليه بالدعاء، معلقين عليه وحده الرجاء .

لأنهم كانـوا يعـرفـون (تمـامـا) ان الـذين يدعـونهم من دونه هم أحقر وأضعف من أن يجلبوا لهم أية مساعدة أو يقدموا لهم أى عون فى تلك اللحظة الحـرجـة ، بل لأنهم كانـوا يدركـون أن من يدعون من دون الله أعجز من أن يسمعوا لهم صوتا، فضلا عن أن يجيبوا لهم دعاء .

لذا فشريط المغالطات المعروض أمام بصائرهم يتمزق فى تلك اللحظة الفـاصلة، وتتجلى أمـامهم الحقيقـة جليـة واضحة، وهى أن أحدا غير الله (مهما كان) لا يمكن الالتجاء إليه لانقاذ الموقف فى اللحظات العصيبة .

كيف يلجأ المشركون الأولون إلى ربهم عند الشدائد وينسون آلهتهم ؟

فهم لهذا يلجأون إلى الله وحده. فيخلصون له الدين، ويدعونه ويتضرعون إليه ويطلبون منه العون والمدد دون سواه وينسون الأولياء الذين اتخذوهم آلهة من دونه فى الرخاء لإيمانهم إيمانا جازما انه سبحانه وتعالى الوحيد الذى يقدر على انقاذهم من الغرق، فهؤلاء المشركون (بشهادة القرآن) يظلون مخلصين لله الدين ماداموا فى منطقة الخطر، ولكنهم إذا اجتازوا هذه المنطقة ونجوا إلى البر عاودتهم العادة التى وجدوا عليها آباءهم، فيشركون مع الله غيره فى الدعاء والذبح والنذر، وهذا هو الذى أنبهم الله عليه وسماهم بسببه مشركين فى قوله تعالى : ﴿**فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾ . (العنكبوت : ٦٥) .

هذا هو حال المشركين الأولين فى إخلاصهم الدين لله وتوجههم إليه وحده بالدعاء عندما يحزبهم أمر أو يحدق بهم خطر .

كيف ينسى مشركو اليوم ربهم عند الشدائد ويلجأون لأوليائهم ؟

أما مشركو هذا الزمن من القبوريين فهم على النقيض من المشركين الأولين، فلا يدعون الله ولا يضرعون إليه إلا فى الرخاء .

أما إذا اشتد بهم كرب أو ضاق بهم مسلك أو تعذر عليهم مطلب، فإنهم ينسون الله سبحانه وتعالى ويذكرون أولياءهم فيجعلون منهم آلهة، فيتقربون إليهم (فى ضراعة وخشوع) بالدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء .

فالبـدوى والجيـلانى والـرفـاعى والتيجـانى والعيدروس وابن عيسى وغـيرهم من الأوليـاء، لا تسمـع الهتـاف الحـار بأسـمائهم ، والتوجه بالدعاء الخالص إليهم ، إلا عند الشدائد .

والقبـوريـون إذا ركبـوا البحـر وأحـدق بهم الخطـر نسـوا الله سبحـانه وتعـالى ، وذكـروا أوليـاءهم ، وسـارعـوا بالابتهال والدعاء إليهم ، مستغيثين ومستنجدين ، قائلين : (فى ذلة وضراعة) مدد ، يابدوى ، ياجيلانى ، يارفاعى الخ . فتراهم يناجون وكأنهم عندهم حاضرون .

ولو رأيتهم (فى هلع وذلة) كيف يتبارون فى نذر النذور لهؤلاء المقبورين ويتعهـدون بتقـديم القرابين عند قبورهم ، ان هم نجوا من الغرق ، لأدركت مدى حقـارة الشـرك وخسـة الكفـر التى تمرغ كرامـة الإنسـان فى مزابلهـا وأوحالها ، حيث تنحدر به من مرتبة الإنسان العاقل إلى منزلة أحط من منزلة الأنعام السائمة .

وأى حقـارة وخسـة ومهـانـة أحـط من أن ينصـرف الإنسان بقلبه عن خالقـه ورازقـه ، عن ربـه الـذى هو معه يسمع ويرى ، ثم يتوجه (فى ضراعة وخشـوع) إلى عظـام نخـرة عجـزت عن صد غارات الدود الذى اقتتل على التهام اللحم المحيط بها فى القبر يتوجه إليها ، فيطلب منها العون والمدد داعيا إياها ومستغيثا بها لتسارع لانقاذه من الغرق ؟؟ وصدق الله العظيم :

﴿ومن أضـل ممن يدعـو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ . (الأحقاف : ٥) .

ولقـد حضـرت كثيرا من هذه الحماقات فتأذى نظرى واكتوى قلبى من تلك المهازل الشركية والتصرفات الجاهلية .

كيف اصطدم المؤلف بالقبوريين عندما اشرفوا على الغرق ؟

وقد حضرت كثيرا من هؤلاء وهم يتضرعون إلى أوليائهم بالدعاء الحار فى البحر، وذلك عندما كنت مسافرا فى البحر الأحمر، منذ أكثر من خمس وعشرين سنة .

فقد كنا أكثر من ثمانين راكبا فى سفينة شراعية صغيرة، وعندما هاج علينا الموج وغشينا من كل مكان صارت السفينة تهبط بنا بين الأمواج الهائلة، وكأنها تنوى الاستقرار فى قاع البحر، وترتفع (مع المد) وكأنها تريد الطيران من البحر .

وفى تلك الساعة العصيبة، ضج القبوريون بالدعاء وطلب العون والمدد، لا من الله الحي القدير على كل شىء، وإنما من الميت الذى لا يقدر على شىء .

فقد توجهوا بقلوب خاشعة كسيرة، إلى الشيخ سعيد بن عيسى رحمه الله الذي فارق الحياة منذ أكثر من ستمائة سنة، وأخذوا يدعونه فى فزع مشوب بالرجاء، قائلين : (يابن عيسى، يابن عيسى، حلها ياعمود الدين) وأخذوا يتسابقون بنذر النذور له والتعهد بتقديمها عند قبره إن هم نجوا من الغرق، وكأن أمرهم بيده، لا بيد الله سبحانه وتعالى .

كاد القبوريون يقذفون بالمؤلف إلى البحر

وعندما حاولت (على صغر سنى حينذاك) إقناعهم بأن هذا موقف لا يصح أن يتوجه فيه مسلم إلى غير الله ورجوت منهم (فى شفقة وإخلاص) أن يلجأوا إلى ربهم ويخلصوا له الدين بالتضرع بالدعاء إليه وحده، وان يتركوا

الشيخ ابن عيسى الذى ليس له من الأمر شىء، الذى لا يسمعهم فضلا عن ان يجيب دعـاءهم، ثاروا وصـاحـوا جميعا (وهابى وهابى) وكادوا يقذفون بى بين الأمواج الهائجة لولا أن الله حمانى منهم ببعض الذين يكتمون إيمانهم فى السفينة .

وعندما هدأت العاصفة ونجونا (بعون الله تعالى وفضله) وحده وليس بفضل ابن عيسى طبعا وأقبل بعضنا يهنىء بعضاً، أخذ هؤلاء القبوريون، يؤنبونني ويخوفونني من سوء الظن بالأولياء، ممتنين على بالنجاة ومذكرين بأنه لولا حضور القطب (ابن عيسى وخفانه) فى تلك الساعة العصيبة لكنا جميعا فى بطون الأسماك .

خـرافة حضور الأولياء عند الشدائد :

فقلت لهم (وقـد أوجعنى سماع هذا الكفـر الصراح) : انكم تظلمون أنفسكم وتفترون على الشيخ ابن عيسى رحمه الله .

ان هذا الشيـخ الميت لهو أعجـز من أن يسمـع دعاءكم، فضلا عن أن يجيبه، فيحضر هنا بين هذه الأمواج لانقاذكم .

اعقلوا أيهـا القـوم، إن هذا الـذي تدعونه من دون الله ميت، وقد قرر الله ان الميت لا يسمع وبهذا جاء القرآن :

قال الله تعـالى : ﴿انـك لا تسمـع المـوتى ولا تسمـع الصم الـدعـاء إذا ولوا مدبرين﴾ . (النمل : ٨)، **﴿وما يستوي الأحياء ولا**

الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور﴾ . (فاطر: **٢٢**)[1] . ولكنكم لجهلكم بسنن الله ، وإعراضكم عن تدبر وفهم ما جاء فى كتاب الله ، تقعون فى مثل هذه الحماقات ، فتنصرفون (بقلوبكم) عن القادر على كل شىء الذى هو معكم يسمع ويرى ، وتتوجهون إلى الميت العاجز الذى هو فى غفلة عنكم لا يسمعكم ولا يراكم .

أما نجاتنا ، فلا أثر لابن عيسى ولا لغيره فيها البتة ، وإنما الذى نجانا (بفضله وكرمه) هو العلى القدير وحده ، دون أن يؤثر عليه دعاؤكم لصالح أو استغاثتكم بنبي ، لأن الكل (الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين رضى الله عنهم) ليس معنا أحد منهم فى تلك اللحظة الحرجة ، وإنما الذى كان معنا (وحده) هو الله الواحد الأحد الذى يسيرنا فى البر والبحر .

فقال أحدهم (متفلسفاً) نحن لا ننكر أن الله فوق الجميع بيده كل شىء ، **فقلت له** : هذه مغالطة قديمة ، قالها المشركون الأولون ، وقولك هذا يخالفه فعلك ، فلو كنت مؤمناً بما تقول إيماناً صادراً من قلبك ، ما انصرفت فى ساعة الكرب والشدة عن هذا الرب الخالق العظيم وتوجهت إلى المربوب الميت الحقير ، فصرت أقل إيمانا وأضعف ثقة بالله من المشركين الأولين الذين يخلصون له الدين ويتوجهون إليه وحده فى الشدة ـ كما حكى ذلك عنهم .

---

(١) هذه قاعدة كونية عامة ثابتة لا تتغير وهى أن الميت (أى ميت) لا يسمع إلا من جاء فى حقه دليل خاص وفى حالات خاصة ، فهذا خصوص يبقى معه العموم على حاله ، فمن أين (إذن) الدليل لهؤلاء القبوريين على أن أولياءهم من الموتى يسمعونهم ، فهل جاء فى القرآن أن الشيخ فلان أو السيد علان قد خصه الله من بين الميتين أنه يسمع من يناديه من كان وفى أى مكان كان ؟ وإذا فرضنا (جدلا) انهم يسمعونهم فهل رخّص الله لهم فى أن يدعوهم ويستغيثوا بهم من دونه ؟ وهل أخبرهم أنهم مخولون باجابة دعائهم والعمل على انقاذهم عند الاستغاثة ؟ سيبقى هذا السؤال دون أن نجد له جواباً مقنعاً عند هؤلاء القبوريين إلى يوم يبعثون . . .

كيف يتمثل الشيطان للقبوريين فى صور أوليائهم ؟

وقال لى آخر (وكأنه حجنى) إنك تكره الأولياء وتنكر كراماتهم ، ولذلك حرمك الله من التمتع بما رأينا فى تلك الساعات الحاسمة . . . **فقلت له** : ومن قال لك اننى أكره الأولياء وأنكر كراماتهم ؟ فهل رأيتنى أشتم ولياً من أولياء الله ؟ أو انتقص صالحا من صالحى المؤمنين ؟ ومتى سمعتني أنكر كرامة ثابتة أكرم الله بها وليا من أوليائه نص عليها كتابه أو جاءت بها سنة نبيه «ﷺ» ؟؟

فهل سمعت إننى أنكرت كرامة أهل الغار الذين أكرمهم الله فأفرج عنهم الصخرة بعد أن انطبقت عليهم وسدت عليهم منافذ الغار ؟ .

أم هل سمعتنى أنكرت ولاية أبى بكر وعمر وعثمان وعلى أو غيرهم من الصحابة (رضى الله عنهم) الذين ثبت (بنص الحديث الشريف) إنهم من أولياء الله المبشرين بالجنة ؟

أم إنها التهمة التقليدية المكرورة توجهونها إلى كل من لا يوافقكم على حماقاتكم ولا يؤمن بخرافاتكم ولا يسكت على جهالاتكم ؟؟

ولكن قل لى ما هو الذى حرمنى الله من التمتع به والذى رأيتموه أنتم فى تلك اللحظة الحاسمة ؟

قال : رأينا القطب العظيم (الشيخ سعيد بن عيسى) وكأنه شعلة من نور ماسكا بالدقل (سارية السفينة) وهو يخاطب البحر طالبا منه أن يسكن ، وفعلا سكن البحر عن الهياج ونجونا ببركة هذا القطب العظيم .

فقلت له : (ساخرا) هل سبق لك أن عرفت الشيخ سعيد بن عيسى العمودي الذى مر على وفاته أكثر من ستمائة سنة ؟

قال (طبعا) : لا . . .

فقلت له : (كيف إذن) عرفت ان الذى رأيته من على الدقل يصدر أوامره إلى البحر بالسكون ، هو الشيخ سعيد بن عيسى العمودي ، وأنت لم يسبق لك أن رأيته ؟؟ فهل نزل عليك وحي من السماء يؤكد أن الذى رأيت (على فرض إنك رأيت) هو الشيخ ابن عيسى ؟ وهنا ارتج عليه ، ولم يحر جوابا .

غلبت عليه السوداء فتصور ابن عيسى معه حاضرا

فقلت له : الحقيقة إنك لم تر ابن عيسى ولا غير ابن عيسى على الدقل ، وإنما فى حالة الهلع والخوف غلبت عليك السوداء فصورت لك (بالاشتراك مع الشيطان) ما ظننته ابن عيسى ، لتزداد ايغالا فى ضلالك وتوغلا فى مفاوز جهالاتك .

وقد كان جوابه الوحيد (الذى قطع به المناظرة) غريبا حين صاح :

وهابى جاحد ، زنديق . وهذا هو آخر سلاح ، يتسلح به القوم عندما تدمغهم حجة أو يصفعهم برهان .

وهنا **قلت لصاحبى** : والآن ما رأيك ؟؟

أليس فى هذا ما يقنعك بأن ما ذكرته لك كان صحيحا من أن إيمان المشركين الأولين بربهم وثقتهم به (فى الشدة) كان أقوى من إيمان القبوريين وثقتهم به سبحانه وتعالى ؟

مغالطات القبوريين :

فقال : لقد قسوت على هؤلاء الناس إذ وصفتهم بالشرك وجعلت إيمانهم بالله وتوحيدهم له أقل من إيمان وتوحيد المشركين الأولين، مع العلم أن هؤلاء القبوريين (كما تصفهم) عندما هتفوا باسم ابن عيسى واستغاثوا به فى تلك الساعة الحرجة، لم يفعلوا ذلك لعدم ثقتهم بالله، ولم يفعلوه اعتقادا منهم أن ابن عيسى وغيره ممن يدعون، هم الذين يسيرونهم فى البر والبحر، أو انهم معهم يسمعون ويجيبون نداءهم كما يجيبه الله سبحانه وتعالى .

وإنما يفعلون ذلك لاعتقادهم ان الله سبحانه وتعالى سينجيهم ببركة توسلهم بهؤلاء الأولياء، فهم ما لجأوا إليهم وهتفوا بأسمائهم فى تلك اللحظة الخطيرة، إلا لاعتقادهم أن لهؤلاء جاها عند الله لابد وأن ينجيهم إكراما لأوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قلت له : هذه مغالطة قديمة مكررة، لا يمكن أن تجوز على عاقل يحترم نفسه لعدة وجوه .

- منها أن هؤلاء القبوريين لو لم يعتقدوا أن هؤلاء الأولياء من الأموات هم معهم فى السراء والضراء يسمعون استغاثتهم ويجيبون دعاءهم، وأن فى يدهم القدرة على انقاذهم، لما ابتهلوا إليهم هكذا، واستنجدوا بهم فى ضراعة وتذلل، استنجاد العاجز الضعيف بالقوى القادر على كل شيء، ولما نذروا لهم هذه النذور، وتعهدوا بتقديم القرابين لهم، إن هم أعانوهم على النجاة من الغرق، بل ولما وفوا لهم بهذا النذر (رغبة ورهبة) .

وهل يقدم عاقل على الهتاف والاستغاثة والاستنجاد بمن يعلم انه لا يسمعه ولا يجيبه، ولا يضره ولا ينفعه ؟

دعاء الميتين من الأولياء إما كفر أو جنـون

ان الذين يدعون الأولياء من الميتين هم بين أمرين : إما أنهم يعتقدون أن هؤلاء الميتـين يسمعـونهم (على بعـد المسـافـة) ويجيبونهم ويعملون على انقاذهم أو لا يعتقدون ، فإن اعتقدوا هذا (وهو ما يعتقدونه فعلا) فهو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لهم .

وأمـا أن يعتقـدوا أن هؤلاء المـدعوين لا يسمعون ولا يجيبون وهذا هو الجنـون ، والمجنـون قد سقـط عنـه التكليف ، فهؤلاء القبـوريون (إذن) إما مشركون وإما مجانين وعليك أن تضعهم حيث شئت .

والحقيقـة أن هؤلاء القبوريين ليسوا بمجانين ، ولكنهم مفتونون فَتَنَهُم الشيطان وزين لهم هذه الأعمال الشركية وحببها إلى قلوبهم .

فلو لم يثقوا فى قدرة أوليائهم على انقاذهم أكثر من ثقتهم فى الله العلى القدير لما أعرضوا عنه جل وعلا وتوجهوا إلى الميتين ، خاشعين متضرعين متذللين .

فأى كفر وضلال بعد هذا ، وماذا أبقوا بعد هذا لله الذى خلقهم وصورهم ؟؟

وبعد أن وصلت مع صاحبى إلى هذه الدرجة من النقاش **قال لى** (فى ارتباك) : ولكن . . . ولكن . . . وتطور ارتباكه إلى تلعثم ، ثم عيَّ فى الكلام فتظاهر بالبحث والتأمل . . .

فقلت له : من غير لكن . . . ولكن . . .

الدليل فى منتهى الوضوح ، وليس لديكم ما يدفعه أويقف فى طريقه ، فليس هناك دليل على هذه الحماقات الشركية والسخافات الوثنية إلا المغالطة والتمسك بالأوهام والتمحلات، التى بها تئدون دينكم وتنحرون اسلامكم .

ثم قلت له : اعتقد اننى بعد هذا الشرح والإيضاح لست بحاجة إلى التوسع لاقناعك بأن الشرك الذى نعاه الله على المشركين الأولين ليس اعتقادهم فيمن يدعون (كيغوث ويعوق ونسرا ، واللات والعزى ومناة) انهم يشركون الله فى خلق أو ايجاد ، إحياء أو اماتة ، ضر أو نفع ، وليس انكارهم وجود الله تعالى ، أو نفيهم كون ملكوت كل شىء بيده ، فهذا لم يقله أحد من أولئك المشركين .

الشيوعية قبل الإسلام :

فقال (وكأنه وجد الحجة) : بلى ، لقد ثبت (فى القرآن) أن هؤلاء المشركين ينكرون وجود الله فهذا قائلهم يقول (كما حكى الله عنهم) .

﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . . .﴾ . (الجاثية : ٢٤)

فقلت له : إن هؤلاء ليسوا المشركين الذين تحدثنا عنهم سابقا ، وإنما هم الدهريون الملاحدة ، وهم فرقة من العرب الذين يسير الشيوعيون اليوم على مذهبهم ، فهؤلاء ، لا يؤمنون بالله ، ولا بما يعتقده المشركون مقربا لله ، فهم (أى الدهريون) ينكرون وجود الله وتبعا لذلك يكفرون بالأصنام والأوثان والألهة التى يتخذها المشركون واسطة تقربهم إلى الله .

فمصدر شرك المشركين الأولين إنما هو إيمانهم بوجود الله مع التوسل إليه وطلب العـون من غيره، وهـذا ما عنـاه الله تعـالى بقـولـه : ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ . (يوسف: ١٠٦).

فلو لم يكن المشركون يؤمنون بالله ، ما اتخذوا هذه الآلهة واسطة تقربهم إلى الله تعـالى كما قال تعـالى : ﴿**والـذين اتخـذوا من دونـه أوليـاء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ . (الزمر: ٣).

فصح (بهـذا يقينـا) ان المعنيـين بانكـار وجـود الله فى آية الجاثية التى أوردتهـا محتجـا بها علي ، ليسـوا المشركين الذين حدثتك عن حقيقتهم ، وإنما هم (بعض العرب) الدهريين ، أو الشيوعيين ، ان صح هذا التعبير .

لأنـه يستحيـل على الـذين يدافعـون عن شركهم ويبررونه بقولهم فى آلهتهم وأوليـائهم ﴿**مـا نعبـدهم إلا ليقـربـونـا إلى الله زلفى**﴾ . (الـزمـر: ٣)، أو ﴿**هؤلاء شفعـاؤنا عند الله**﴾ . (يونس : ٤)، يستحيل عليهم أن ينكروا وجود الله الذى ما اتخذوا الآلهة من الأولياء إلا ليقربوهم إليه ويشفعوا لهم عنده ، هذا بالاضافة إلى الآيات الأخرى التى تثبت اعترافهم صراحة بوجود الله وتوحيدهم لله فى الربوبية كما تقدم .

حقيقة الشرك الذي كان عليه المشركون الأولون

فقال صاحبى (وقد أعياه طول النقاش) :

فما هو (إذن) الشَرك الـذى نعـاه الله على المشركين فى القرآن وأحل به دمـاءهم وأمـوالهم وأمـر رسـوله بقتالهم عليه ، مادام انهم يؤمنون بالله تعالى ويوحدونه هكذا ؟ .

فقلت له : سؤال فى الصميم .

هذه هى النقطة الحساسة التى عندها تضل الأفهام وتزل الأقدام ، والتى لو وقف الناس عندها وقفة تبصر وتفهم وتدبر، وأعطوها حقها من البحث والمقارنة، لما وجدت منتسبا إلى الإسلام واحدا، يتوجه بدعاء أو استغاثة أو ذبح أو نذر أو غير ذلك مما هو حق الله وحده إلى غيره سبحانه وتعالى من الأنبياء ومن دونهم من الأولياء وغيرهم .

جهل الناس اليوم بحقيقة شرك مشركى العرب أوقعهم فى الشرك

فجهل الناس فى هذه الناحية الخطيرة وعدم معرفتهم بحقيقة الشرك الذى كان عليه المشركون الأولون، هو الذى أوقعهم فيما لا يظنونه شركاً، وهو الشرك بعينه، ولوثهم بما لا يحسبونه كفراً وهو الكفر ذاته (دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله زلفى) دون أن يأذن الله لهم فى ذلك .

تخوف ابن الخطاب من الوقوع فى الشرك

ولقد أبدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه تخوفه مما وقع فيه الناس اليوم من الشرك، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا حيث قال :

«ستنقض عرى الإسلام عروة، عروة» قيل وكيف ذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال : إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية، أو كما قال : فهؤلاء الذين يدعون الأموات اليوم، ويذبحون وينذرون لهم، ويطوفون بقبورهم، مقدسين ومعظمين خاشعين لهم، ومتضرعين إليهم بقصد التوسل

والتوسط بهم إلى الله ، لو عرفوا ان هذا هو عين العمل الذى كان عليه العرب فى الجاهلية والذى سماه الله شركا واعتبره كفرا لما أقدموا عليه وتمسكوا به ، وثاروا وغضبوا على من أنكره عليهم .

أما الشرك الذى كان عليه المشركون الأولون والذى طلبت منى ايضاحه وسألتنى عن حقيقته فهو أن أولئك المشركين (مع إيمانهم المطلق بوجود الله وتسليمهم بقدرته المطلقة على التصرف فى جميع شؤون الكون . دونما شريك أو ظهير) . كانوا قد ابتدعوا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، هذه البدعة استحسنتها عقولهم وسكنت إليها نفوسهم .

وهى أنهم اتخذوا من المخلوقين (كاللات والعزى ومناة ويغوث ويعوق ونسرا) أولياء ووسائط يلجأون إليهم ، ويتقربون إليهم بالدعاء والنذر والذبح ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم فى قضاء حاجاتهم وكشف كرباتهم ، دون أن يأذن الله لهم بذلك أو يرضاه .

وهذا ما عناه القرآن وأنكره عليهم بقوله :

﴿ويعبدون - أى يدعون - من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبؤون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (يونس : ١٨) **﴿مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾** . (السجدة : ٤)

اتخاذ الأولياء وسائط إلى الله هو عين الكفر

وعلى أساس هذه الفلسفة، فلسفة التوسل والتوسط والتشفع بهؤلاء الآلهة من الأولياء، كانوا يدعونهم ويستغيثون بهم ويذبحون وينذرون لهم ويطوفون حول أنصابهم وتماثيلهم جاعلينهم محط آمالهم ومعقد رجائهم والباب الذى يصلون منه إلى الله بزعمهم .

فهذا وأمثاله هو الذى أنكره الله عليهم واعتبره منهم شركاً وكفراً، به أحل دماءهم وأموالهم وجالدهم عليه محمد (ﷺ) بالسيوف فى بدر وأحد وحنين والخندق وغيرها، وقطع بينه وبينهم (من أجله) كل أواصر القرابة والنسب .

واعتبره الله عبادة منهم لغيره وشركاً به، وغضب عليهم وأبعدهم من رحمته، لأنهم سلكوا هذا الطريق وابتدعوا هذه البدعة، بدعة اتخاذ الوسائط والشفعاء، يتوكلون عليهم ويلجأون إليهم ليكونوا بابهم إلى الله دون ان يأذن لهم سبحانه وتعالى بذلك ﴿**من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ . (البقرة: ٢٥٥) .

فقال صاحبى : هذا أيضا قول مجمل ليس فيه من الأدلة القطعية ما يقنعنا بصحته، فما هو الدليل المفصل على صحته ؟؟

فقلت له : الدليل فى كتاب الله أيضاً، فقد قال تعالى : ﴿**ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه**

منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز﴾ (الحج : ٧٣-٧٤).

كما أنكر عليهم فى آية يونس السابقة دعاءهم غيره واتخاذهم وسائط تشفع لهم عنده، وجعل ذلك شركاً به وعبادة لغيره حين قال : **﴿ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾**. ثم أنكر عليهم مبطلا دعواهم ورادا حجتهم هذه - حجة التشفع والتوسل - فى تقريع وتوبيخ بقوله : **﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**. (يونس : ١٨).

أى انه سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يتقدم إليه أحد فى هذه الدنيا بوسيط أو شفيع لأنه لا يخفى عليه شىء من حال عباده حتى يتقدموا إليه بالشفعاء والوسطاء ليخبروه بما خفى عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقال تعالى منكرا عليهم التوسط بمن يظنون بهم خيرا من الصالحين وموضحا أن هؤلاء الذين يدعونهم من دونه هم عباد أمثالهم لا يملكون لأنفسهم جلب نفع أو دفع ضر، فضلا عن أن يكشفوا عنهم ضراً أو يحولوا عنهم سواً، بل انهم (مع قربهم منه جل وعلا) يتقربون إليه بالخوف منه والرجاء فى رحمته، **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا، أولئك الذين يدعون** - وفى قراءة

تدعـون - يبتغـون إلى ربهم الـوسيلة أيهم أقـرب ويـرجـون رحمته ويخافون عذابه، ان عذاب ربك كان محذورا﴾ (الاسراء: ٥٦-٥٧).

وقـال تعـالى معتـبرا دعـاء غيره من المخلوقـين شركـاً : ﴿والـذين تدعـون من دونـه ما يملكـون من قطمـير. ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا دعاءكم ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ . (فاطر: ١٣، ١٤).

﴿لـه دعـوة الحق والـذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال﴾. (الرعد: ١٤).

﴿والـذين اتخـذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾ (الزمر: ٣).

فهـذه بعض الأدلـة (لا كلهـا) التى تثبت لك صحة ما ذكرت لك من حال المشركين وتوضح حقيقة الشرك الذى كانوا عليه، هذا الشرك الذى يقع كثير من الناس فيه لجهلهم بحقيقته .

نسف أعظم شبهة يتمسك بها القبوريـــون :

قال صاحبى : ان هذه الآيـات التى ذكـرت لى إنها نزلت فى المشركين من العـرب فى الجـاهليـة فهى خاصـة بهم، أما هؤلاء الذين يستغيثون اليوم بالأوليـاء فلا صلة لهذه الآيـات بهم ولا يمكن أن تنطبق عليهم. **فقلت له** : وهذه حجة منقوضة ومغالطة مكشوفة .

فهذه الآيات (حقاً) إنما نزلت فى أيام مشركى العرب وفى حقهم، بل القرآن كله إنما نزل فى تلك الأيام، ولكن هذا الكتاب الخالد هو خطاب الله لعباده فى كل زمان ومكان، وأوامره خالدة يجب اتباعها، ونواهيه أبدية يحتم اجتنابها إلى يوم يبعثون .

فالعبرة فى القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والقاعدة الثابتة عند جميع المسلمين هى أن الحكم يدور مع العلة فأينما وجدت العلة وجب الحكم .

والعلة فى شرك المشركين الأولين هى أنهم كانوا يدعون من دون الله عباداً أمثالهم ويعتمدون عليهم ليكونوا شفعاءهم عند الله، وهذا هو نفس الشىء الذى يفعله القبوريون اليوم، يدعون الأولياء ويستغيثون بهم ليكونوا واسطتهم إلى الله، ومن هنا جاء الحكم على الفريقين بالشرك (دونما تمييز) لأنهم اتحدوا فى القصد والعمل، التوجه إلى غير الله بالدعاء والذبح والنذر ليكون شفيعهم عند الله .

فقال : ان قياسك هذا الذى طبقت (بموجبه) حكم الشرك على الفريقين (دونما تمييز) هو قياس مع الفارق لا يمكن التسليم به .

فقلت له : الآن وقد أوضحت لك (بعد أن اجهدت نفسى) أن كفر المشركين الأولين إنما كان فى اتخاذهم الوسائط والشفعاء والتقرب إليهم بالدعاء والذبح والنذر لهم، وبينت لك أن القبوريين اليوم إنما يسلكون نفس هذا الطريق، ويسيرون على هذا المنهج حذو القذة بالقذة، فهل لك أن تبين لى ما هو الفرق الذى يجعل عمل أولئك كفرا وشركا، يعاقب الله عليه بالخلود

فى النـار، وصنيـع هؤلاء توسـلا مبـاحا يرضى الله عنه ولا يعاقب عليه، مع اتحاد الفريقين فى العمل واتفاقهما فى المقصد ؟

فقال : الفرق من عدة وجوه :

(أولا) : ان أولئـك المشـركـين كانـوا يعبـدون غير الله، وقـد جاء اعـترافهم بعبـادة غير الله واضحة فى قولهم (كما حكى عنهم) ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ .

أما المتوسلون اليوم بالأولياء فهم ينكرون عبادة غير الله، ويقولون انهم لا يقصـدون بدعـاء الأوليـاء من الأمـوات والاستغـاثة بهم، عبادتهم، وإنما يقصدون التبرك والتوسل، ومن هنا يجيىء التمييز بينهم وبين المشركين فى الحكم .

تبديل الألفاظ لا يغير من الحقيقة شيئا :

فقلت له : إن الأفعـال والمقـاصـد (كما قلت لك فيما مضى) هى التى يترتب عليهـا الحكم ولا قيمـة للألفـاظ التى يتشبث بها للدفاع عن تصرفه، خوفـا من صدور الحكم عليـه، مادام ان فعله هو العلة الموجبة للحكم الذى صدر ضده .

فلو أن إنســانـاً اعتـاد السجـود للصنم، وظـل (مـع ادمـانه على هذا السجود) يعلن استنكاره لعبادة غير الله، ويصرح بأنه لم ولن يعبد غير الله، فهل يكون قوله هذا (مع فعله ذاك) مانعا من إدانته بالشرك والحكم عليه بالكفر ؟؟

فقال صاحبى : لا . . . بل هو كافر ومشرك .

فقلت له : فهذا (إذن) ينطبق تماما على القبوريين اليوم ، فتصرفاتهم قد أدانتهم بالشرك والكفر، ومع هذه الادانة الصريحة ، فهم ينكرون هذا ولا يعترفون به .

فالفـرق بينهم وبـين المشـركـين الأولـين هو أن أولئـك المشـركـين أكثر صراحة عندما اعترفوا بعبادتهم لغير الله ، والمشركون من القبوريين أعرق فى التمـويـه والمغـالطـة عنـدما أقدموا على عبادة غير الله ثم أنكروا هذه العبادة وسموها بغير اسمها .

فقـال (محـاولا المغـالطـة) : أنـا قد قلت ولا أزال أقـول لك إن فعـل المشـركـين الأولـين هو عبـادة لغـير الله ، وبفعلهم هذا استحقوا اسم الشرك ووصف الكفر .

وأفعال المتوسلين اليوم بالأولياء والمستغيثين بهم ليس عبادة لهم ، ولهذا لا يصح الحكم عليهم بالكفر والشرك .

فقلت له : لقـد أجهـدتنى بتكـرار محاولاتـك للتهـرب من الاعتراف بالحقيقة التى ما كنت اعتقد أن عاقلا مثلك يمارى فى الاعتراف بها هكذا .

ولقد أوضحت لك (بما لا مزيد عليه من الشرح) حقيقة إيمان المشركين الأولين بوجود الله وتوحيدهم إياه جل وعلا (فى الربوبية) توحيداً كاملا وبينت لك بكل وضوح ، حقيقة الشرك الذى كانوا عليه والأسباب الموجبة لادانتهم به والحكم به عليهم .

وشـرحت لك بالتفصيل ان حكمنا على هؤلاء القبوريين بالشرك إنما جاء نتيجـة للمقـارنـة بين فعلهم وفعـل أولئك المشركين الأولين الذين أصدر

القـرآن حكمـه فى حقهم منـذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، وتوصلنا (بعد البحث الدقيق والمقارنة الصحيحة) إلى أن ما يفعله القبوريون اليوم مع أوليائهم من دعاء واستغاثة وذبح ونذر وخوف ورجاء، هو عبادة لغير الله سبحانه وتعالى .

لأنـه (بـالضبـط) نفس الفعـل الذى كان يفعله المشركون الأولون مع أوليائهم ومدعويهم من دون الله، وهو الذى اعتبره الله منهم عبادة لغيره .

ولكنـك مع هذا تصـر على التمييـز بين الفـريقـين فى الحكم، مع ان الجميع (باشتراكهم فى القصد والعمل) يجتمعون على عبادة غير الله .

ومادام ان هذا لا يزال هو رأيك فإن لى سؤالا أرجو منك الاجابة عليه بالتفصيل، وهو :

هل لك أن تشـرح لى حقيقـة العبـادة التى عبد المشركون بها غير الله فسماهم بها مشركين وحكم عليهم بالكفر من أجلها ؟

الدعاء والذبح والنذر لغير الله هو الشرك الأكبر :

اننى أريد منك الاجابة على هذا السؤال، لكى نستطيع إدراك ما إذا كان هناك فرق بين الفريقين، به ندرك صحة نظريتك التى تعتبر عمل أولئك المشركين الأولين عبادة لغير الله وتنفى عن القبوريين صفة هذه العبادة ؟

وهنـا بدت عليـه الحيرة والارتباك، فقد تلقى هذا السؤال وكأنه سوط ألهب ظهره فقد أوقعه هذا السؤال بين شقى الرحى، ولكنه لم يستسلمْ إلا أنه (من فرط حيرتـه) اعـترف بحقيقـة كان (طيلة المنـاقشـة) يحاول التهرب من الاعتراف بها .

فقد قال :

إن الحقيقة التى يجب الاعتراف بها، هى أن المشركين الأولين ما كانوا يفعلون مع أصنامهم أكثر من أنهم يتقربون إليها بالدعاء والذبح والنذر والطواف، وما شابه هذا من العبادات والقرب، مع اعتقادهم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تحيى ولا تميت، ولا تدفع شراً ولا تجلب خيراً .

فهدفهم مما يعملون لها إنما هو لترضى عنهم فتقربهم إلى ربهم وتشفع لهم عنده، ليكونوا محل رحمته ورعايته .

وهذا هو حقيقة عبادتهم لغير الله، والتى بها سماهم الله مشركين وحكم عليهم بالكفر. ولا اكتمك بل اقولها ـ صراحة ـ اننى ما كنت أعرف أن هذا هو حقيقة الشرك الذى كان عليه المشركون الأولون، إلا من سير المناقشة التى دارت بينى وبينك هذه المرة .

فقلت له : عظيم جداً . . . لقد اتفقنا إذن (بعد طول النقاش) على نقطة من أهم النقاط فى الموضوع، وهى تحديد العبادة التى كان عليها المشركون الأولون .

وهذا يعنى طبعا انك تعترف وتقرر بأن الدعاء والذبح والطواف والنذر والتذلل والتضرع عبادة .

لا فرق بين القبوريين اليوم وبين المشركين الأولين

ثم قلت له : والآن وقد وفُقت فى الاجابة على هذا السؤال، فإن لى سؤالا آخر أرجو منك الاجابة عليه بنفس الصراحة التى أجبت بها على السؤال الأول .

أليس القبـوريـون اليـوم يتـوجهـون إلى أوليـائهم من الميتـين بالدعاء والـذبـح والنذر والطواف والتضرع والخشوع ، لكى يرضوا عنهم فيشفعوا لهم عند الله ويتوسطوا لهم لديه ؟؟

فقال : بل وهذا هو واقع حالهم الذى لا يمكن انكاره البتة **فقلت له** : (إذن) لقـد اتفقنـا على ان الفـريقـين متساويان فى هذه الناحية ، القبوريون يتـوجهـون إلى أوليـائهم بالدعاء والتضرع والذبح والنذر والطواف ، وكذلك يفعـل المشـركـون مع معبـوديهم من دون الله ومعنى هذا أن كلا من الفريقين يتوجه بالعبادة إلى غير الله ، وهذا هو عين الشرك الذى حرمه الله .

فهــل يبقى (بعـد هذا) لديـك مانـع من الاعـتراف بأن القبـوريـين (بعملهم هذا) قد اشركوا بالله ، لتساويهم واتحادهم (فى القصد والعمل) مع المشركين الأولين ؟؟

هل هناك فرق بين دعاء الأصنام والأوثان وبين دعاء الأولياء والصالحين ؟

فقــال : نعم . . . المــانـع لدى من الاعـتراف بهذا ، هو أن أولئـك المشـركـين يدعـون أصناما وأوثانا هى من صنع أيديهم ، ليس لها جاه أو منزلة عند الله وهؤلاء (القبوريون كما تسمونهم) يدعون أولياء ويستغيثون بصالحين لهم جاههم ومنــزلتهم عنـد الله ، كما قال تعـالى : ﴿**ألا إن أوليـاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ (يونس : ٦٢) .

فالفـرق كبـير بين الأحجـار والأصنـام التى اتخـذ المشـركون منها آلهة يعبـدونهـا وبـين الأوليـاء والصالحين الذين لم يقل الداعون لهم بأنهم آلهة من دون الله .

فقلت له : لقـد استبشـرت فيـما مضى ، حيث بدا لى أنك أخذت فى السير على الطريق الصحيح المؤدى إلى معرفة الحق والصواب ، ولكنك مع الأسف أركست فى الحمأة من جديد ، حيث عدت إلى سلوك طريق الزوغان والمغالطة التى تجعل نقاشنا يدور فى حلقة مفرغة ينتهى من حيث بدىء ويبدأ من حيث انتهى .

إن تفريقك هذا هو فى غاية السخف والغباء ، وحجة هى من الضعف والتخاذل بحيث لا يمكن النظر فيها فضلا عن قبولها .

فالمعـروف عنـد جميـع المسلمـين (كـما هى القاعدة المقررة) أن التوجه بالعبادة (أية عبادة) إلى غير الله تعالى ، هى كفر بالله وشرك مخرج من الملة .

ولا فرق ، سواء كان المتـوجـه إليـه بالعبادة نبيا مرسلا أو ملكا مقربا أو وليا صالحا أو حجرا أصم أو شيطانا مريدا ، وهذا مالا يختلف فيه اثنان من المسلمين .

ولقـد اعـترفت (أنت) أثنـاء مراحل هذه المناقشة ، بأن الدعاء والذبح والنذر والطواف هو عبادة .

واعتبارك توجيه المشركين هذه العبادة إلى أصنامهم وأوثانهم كفرا بالله وشـركـا به ، وتـوجـه القبـوريـين بنفس هذه العبـادة إلى أوليائهم من سكان الأضـرحـة ، ليس عبـادة ولا شركـاً ، هو غاية التعسف والحيدة المقصودة عن جادة الحق الصواب ومحاولة فاضحة لانكار أمر واقعه كواقع الشمس والقمر .

فتمييزك هذا ليس له حجة دينية من القرآن أو الحديث تسنده وليس له برهان عقلى يعضده ، وإنما هو قول أملاه منطق العناد والمكابرة الذى ما كنت أظن (بعد طول هذه المناقشة) أنك ستبقى أسيرا من أسراه وضحية من ضحاياه .

فقـال : أنـا لست أسـيراً لعنـاد ولا ضحيةً لمكابرة ، وإنما أنا مثلك لى حق التعبير عما أراه وأعتقده ، وهذا هو الذى لا أزال أراه وأعتقده ، وقد اتفقنا (فى بدء المناقشة) على أن نكون صرحاء فى المناقشة وأن نرفع عواطفنا جانبا ، فأرجوك أن لا تنفعل وأن تترك لى حريتى فى التعبير عن كل ما أراه ، وإذا لم يرق لك الـرأى الـذى أرى فإن من حقـك نقضـه ورفضـه بما ترى مما تعتقده حججـاً وبـراهـين ، على أن يكـون ذلك من غير انفعال أو قسوة فى التعبير ، لأن ذلـك له أثـره الضـار فى المنـاقشة ، مما لا يساعد على الوصول إلى الغاية المطلوبـة التى يدور النقـاش من أجلها . **فقلت له** : أنا معك فى أن الانفعال والقسـوة فى التعبـير أثنـاء منـاقشة (ما) لا يساعدان على الوصول إلى الغاية المطلوبة من المناقشة .

وسأحاول جاهدا انقاذك مما أعتقد انه ضلال .

شرك المشركين الأولين ما كان إلا بعبادتهم الأولياء والصالحين

وبما أنك لا تزال مصراً على التمييز بين الفريقين فى الحكم، وحجتك أو شبهتك (على الأصح) هى أن المشركين الأولين كانوا يتخذون من الأحجار أصناما وأوثانا يتقربون بها إلى الله، وأن القبوريين اليوم إنما يتوجهون إلى أولياء وصالحين، فأنا مستعد أن أزيل هذه الشبهة الضعيفة، فأثبت لك أن المشركين الأولين كانوا، تماما، كالقبوريين الحاليين، لا يتوجهون بالذبح والنذر والطواف والدعاء إلا إلى عباد يعتقدون فيهم الصلاح والاستقامة من الآدميين، وأنهم ما كانوا - فى حقيقة أمرهم - يعبدون إلا الأولياء والصالحين .

وأن التماثيل والأنصاب ما كانوا يعبدونها لذاتها وإنما يعبدون الأشخاص التى كانت هذه الأصنام والتماثيل والأنصاب ترمز إليهم وتسمى بأسمائهم (كيغوث ويعوق وود ونسرا وسواع واللات والعزى) .

أما الدليل على أن المشركين الأولين كانوا (كالقبوريين اليوم) يعبدون الأولياء والصالحين، ويتخذونهم آلهة من دون الله، فهوفى القرآن الكريم، الا انكم لا تهتدون إليه، فقد خاطبهم الله تعالى جميعا بقوله :

﴿ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين﴾ (الاعراف : ١٩٤) .

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ . (العنكبوت : ٤١) .

ثم وضـع القـاعـدة العامة فى العبادة للجميع فى كل زمان ومكان حين قال : ﴿**ألا لله الـدين الخـالص والـذين اتخـذوا من دونـه أوليـاء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ . (الزمر: ٣) .

﴿**قـل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا**﴾ . (الرعد: ١٦) .

﴿**أفـحسب الـذين كفـروا أن يتخـذوا عبـادى من دونى أولياء**﴾ . (الكهف: ١٠٢) .

﴿**أم اتخذوا من دونه أولياء، فالله هو الولي**﴾ . (الشورى: ٩) .

﴿**قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض**﴾ . (الانعام: ١٤) .

فهـذه الآيـات الكـريمـة تثبت (بـما لا يدع مجالا للشك) أن المشركين الأولـين، إنـما كانوا (كالقبوريين اليوم) يدعون الأولياء والصالحين ويتخذون منهم آلهة يعبدونها بالدعاء والذبح والنذر والطواف والخوف والرجاء لتشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى .

المشركون ما كانوا يعبدون الأصنام لذاتها

وأن الأصنـام والأنصـاب والتـماثيـل والأوثـان (كـاللات والعزى ومناة ويغـوث ويعـوق ونسـراً) إنـما كانت تمثـل أولئـك الأولياء والصالحين بحملها أسـماءهم، فهم (أى المشـركـون الأولـون) لا يعبدون هذه الأصنام والتماثيل

لذاتها، وإنما يعبدون الأشخاص المتمثلين فيها، ممن يظنون بهم خيرا، ويعتقدونهم أولياء وصالحين تماما كما يفعل القبوريون اليوم .

وبهذا يتضح لك أن الفريقين ـ القبوريين والمشركين الأولين ـ يتساوون من حيث عبادة الأولياء، والفرق الوحيد بين الفريقين هو أن المشركين كانوا يعكفون حول التماثيل والأنصاب التى تحمل أسماء أوليائهم ويقصدونها ويتوجهون إليها، والقبوريون اليوم يعكفون حول القبور والتوابيت والأضرحة والمشاهد التى تحمل أسماء أوليائهم ويقصدونها ويتوجهون إليها، على أن المقصود الحقيقى ليس تلك الأنصاب والتماثيل، ولا هذه القبور والتوابيت والمشاهد، وإنما المقصود من تحمل أسماءهم تلك الأنصاب والتماثيل أو هذه القبور والتوابيت .

فلو سألت اليوم أحد القبوريين العائدين للبدوى (مثلا) من أين أتيت ؟ لقال لك جئت من عند سيدى البدوى، بينما هو (فى الحقيقة) لم يأت من عند البدوى ولم يسبق له أن عرفه أو رآه . وإنما أتى من عند القبر أو التابوت الذى يحمل اسم البدوى، نفس الشىء الذى كان عليه المشركون الأولون الذين لم يذهبوا (فى الواقع) إلى (اللات أو يغوث أو يعوق ذاتهم) وإنما ذهبوا وتوجهوا إلى الأنصاب والأصنام والتماثيل التى تحمل أسماء هؤلاء الأولياء أو من يظنون أنهم أولياء .

الأصنام ليست إلا أسماء رجال صالحين

فقال صاحبى : ومن أين لك الدليل على أن المشركين الأولين ما كانوا يعبدون الأنصاب والأصنام والتماثيل، المقامة من الحجر أو الذهب أو

النحـــاس لذاتهـا ، وإنـما يعبـدون أوليـاء وصـالحـين سميت بأسـمائهم هذه الأنصاب والتماثيل ؟

فقلت له : أما الدليل القاطع على ذلك فقد كان بوسعك (لو وفقت) أن تفهمه مما مضى من الآيات الكريمة التى تثبت (بما لا يدع مجالا للشك) أن المشركين الأولين ما كانوا يعبدون إلا الأولياء والصالحين ، وقد أوردتها لك فيما مضى من هذا النقاش[1] .

ولكننى زيـادة فى الابـلاغ وتـوسعـاً فى اقامة الحجة ورغبة فى ازالة كل شبهـة يمكنـك التشبث بها أو الـوقـوف عنـدها ، سأذكر لك (إن شاء الله) ما يسنـد قولى هذا ويطيـح بآخـر شبهـة قد تتمسك بها للبقاء على الرأى الذى تتشبث به .

يغوث ويعوق ونَسْر كانوا رجالا صالحين من قوم نوح

(١) روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العـرب ، امـا (ود) فكـانت لكلب (بدومة الجندل) و(سـواع) لهذيـل و(يغوث) لمراد ، ثم صارت لبني غطيف (بالحوف أو الجرف) عند سبأ .

أمـا (يعـوق) فكـانت لهمدان ، وأما (نسر) فلحمير ، لآل ذى الكلاع وكلهـا أسـماء رجـال صالحين من قوم نوح ، فكلما هلكوا أوحى الشيطان إلى

(١) اتضح من سير نقاشنا فيما مضى ان عبادة غير الله التى نعاها الله على المشركين إنما هى الدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء المتوجه به إلى غيره من الأصنام والأوثان المقامة بأسماء الأولياء الصالحين .

قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها انصابا، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت. . .

(٢) وبمثل قول ابن عباس، قال الكلبى فى كتابه (الأصنام) ص٥٢ قال مايأتى : «ثم جاء القرن الثالث فقالوا ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم» .

(٣) وقال محمد بن كعب عن (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) : «هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كانوا لهم أتباعا يقتدون بهم، ويأخذون مأخذهم فى العبادة، فجاءهم إبليس وقال لهم، لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس : إن الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم» .

متى بدأت عبادة الأصنام؟

فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك، وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم من المسلمين .

وروى ابن جرير عن محمد بن قيس قوله : «كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم اتباع يقتدون بهم، فقالوا، لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم» وإلى مثل هذا ذهب عكرمة والضحاك وقتادة وابن اسحاق .

اللات كان رجلا يلت السويق للحجاج :

(٤) اما اللات فقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه : «كان اللات رجلا يلت السويق للحجاج» وقال ابن الكلبى فى (الأصنام) ص١٦ : واللات بالطائف، وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة، وكان يهودى يلت عندها السويق، وهو كقول ابن عباس .

(٥) ويقول الشهرستانى - صاحب الملل والنحل - (وضع الأصنام حيثما قدر إنما هو على معبود عليه الحياة غائب، يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهيئته نائبا منابه وقائما مقامه، والا فنعلم قطعا ان عاقلا مالا ينحت بيده جسما لصورة، ثم يعتقد انه إله . لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وربطوا حوائجهم بها - من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله تعالى - كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات الهية لها، وعن هذا كانوا يقولون ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ (الزمر: ٣) .

فهل بعد هذا يبقى لديك شك فى أن الأصنام إنما أقيمت بأسماء اناس اعتقد قومهم فيهم الصلاح وأحبوهم، وأن هذه الأصنام لم تعبد لذاتها وإنما عبدت تبعا لعبادة من أقيمت بأسمائهم ؟

أشكال قبورى كبير يحله المؤلف :

فقال (وقد بدت عليه علامة التسليم بوجاهة النظرية التى شرحتها له) : ولكن الأمر لا يزال فيه كثير من الاشكال .

﴿**وإذ قال إبراهيم رب أجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام**﴾ (إبراهيم: ٣٥).

فقلت له : اشرح لى هذا الأشكال وأنا إن شاء الله سأبين لك كل ما أشكل عليك فى هذه الناحية .

فقال : تبين فيما أوردت من آيات وآثار انك تريد إثبات ان المشركين الأولين ما كانوا يعبدون إلا الأولياء والصالحين، لكى تثبت (عن طريق القياس) ان القبوريين (كما تسميهم) يعبدون الأولياء والصالحين كذلك .

ولكنه جاء فيما أوردت من آيات ان المشركين كانوا يعبدون الأصنام عبادة حقيقية لذاتها، ولو كانوا لا يعبدونها لذاتها وإنما يعبدون الأولياء والصالحين التى تحمل هذه الأصنام أسماءهم، لبين الله لنا ذلك ولاقتصر القرآن على توبيخ المشركين على عبادتهم الأولياء ماداموا لا يعبدون إلا هؤلاء الأولياء، ومادام انهم (أى المشركون الأولون) لا يعتمدون على هذه الأصنام لتشفع لهم عند الله .

ولكن جل التحذيرات والتوبيخات التى جاءت فى القرآن لهؤلاء المشركين حول هذا الموضوع إنما كانت مركزة على نهيهم عن عبادة الأصنام والأوثان والأنصاب .

﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ (الحج : ٣٠) .

﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا﴾ (العنكبوت : ١٧) .

﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا﴾ (العنكبوت : ٢٥) .

﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾ (الاعراف : ١٣٨) .

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة﴾ (الأنعام: ٧٤).

﴿قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين﴾ (الشعراء: ٧١).

﴿وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ (الأنبياء: ٥٧).

﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون﴾ (الأنبياء: ٥١، ٥٢).

فهذه الآيات مما يلقى ضوءا على ان المشركين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لذاتها ولهذا جاء النهى عن عبادة هذه الأوثان والأصنام صريحاً كما جاء هذا النهى أيضا عن عبادة الأولياء.

عبادة الأصنام إنما هى للأولياء

فقلت له: نعم لقد ثبت هذا النهى عن عبادة الأصنام وعن عبادة الأولياء، وهذا (صراحة) يدين القبوريين بعبادة غير الله لأنهم يعبدون الأولياء، ولو لم يأت فى القرآن إلا النهى عن عبادة غير الله مع ذكر الأصنام وإهمال ذكر الأولياء، لاعتبرنا القبوريين عبدة أولياء لأن هؤلاء الأولياء هم غير الله، توجه إليهم هؤلاء القبوريون بنفس العبادة التى يتوجه بها المشركون إلى أصنامهم (الدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء) وهذا على فرض أن المشركين الأولين لم يعبدوا إلا أصناما وأوثانا من الحجر والنحاس والذهب وغير ذلك من الجمادات.

ولكن الثابت أن أولئك المشركين كانوا يعبدون الأولياء والصالحين لذاتهم، ويعبدون الأصنام والأوثان والتماثيل لا لذاتها وإنما تبعا لعبادة

معبوديهم الحقيقيين من الأولياء والصالحين الذين أقيمت بأسمائهم هذه الأصنام والأوثان والتماثيل، كما بينته لك فيما مضى بالأدلة القطعية .

لهذا يصفهم الله سبحانه وتعالى مرة بأنهم عباد أصنام، ومرة عباد أولياء، فهم عباد أصنام بالسعى إليها والطواف حولها والعكوف عليها وتقديم القرابين لها .

وهم أيضا عباد أولياء بدعائهم لأصحاب هذه الأصنام وطلب حوائجهم منهم (والاعتماد عليهم شفعاء ووسطاء عند الله دون أن يأذن لهم بذلك) .

وهكذا القبوريون اليوم، يقبلون استار الضريح ويطوفون حوله ويزينونه ويبنون القباب عليه ويقربون له النذور، فهم بهذا عباد قبور صراحة وعباد أولياء ضمنا .

ثم هم فى طوافهم حول ضريح يدعون صاحبه الميت، ويستغيثون به ويستنجدون، ويطلبون المدد، فهم بهذا عباد أولياء صراحة، وعباد قبور ضمنا .

فإن سميتهم عباد قبور فأنت صادق، باعتبار ما يصنعونه للقبور، وإن سميتهم عباد أولياء، فأنت صادق، باعتبار ما يعبدونه به أولياءهم من دعاء ونذر وحلف وخوف ورجاء .

وهم، هم فى الحالين بشركهم الأكبر، وإن سميتهم عباد أوهام وشهوات، فأنت صادق فعابد القبر إنما فتنه هواه فأضله فعبده، وعابد القبر

إنما يصور فى الضريح ويصنع له ما تنزو به شهواته[1] .

واسمع ما قاله الأستاذ عبد الرحمن الوكيل (فى كتابه دعوة الحق ص٦٢) .

التعبير بمن وبما عن آلهة المشركين وتحقيق ذلك

وهذا هو سر التعبير أحيانا (بمن) فى موضع والتعبير (بما) فى موضع فى القصة الواحدة فى القرآن، أو سر التعبير بما له دلالة على ما يعقل وبما له دلالة على مالا يعقل فى الموضع الواحد، وضع هذا مكان ذاك فى القصة الواحدة .

فإذا عبر بـ (ما) الدالة على مالا يعقل فالمقصود بما أقيم بأسماء الأولياء من أصنام وتماثيل[2] وكلا التعبيرين لا يختلف أحدهما عن صاحبه إلا بالاعتبار أو كلاهما يعبر عن ذلك (الغير) الذى عبد من دون الله .

فتختص (من) بذاته، وتختص (ما) بالصنم أو القبر الذى أقيم باسمه (٤٦ : ٥) ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة؟**﴾، وفى الآية التى قبل هذه الآية من السورة نفسها وهى الاحقاف ﴿**قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض**﴾ فعبر عن شىء واحد من وما .

---

(١)، (٢) دعوة الحق «ص ٦٢» للأستاذ عبد الرحمن الوكيل .

فلا يخدعك عباد القبور عن الحق بإلباسه بالباطل ، حين يزعمون ان شرك الجاهلية كان سببه دعاء الأصنام ، ولذلك يعبر الله عنها بـ (ما) الدالة على مالا يعقل ، أما نحن فندعو أولياء .

وأنت قد عرفت من القرآن سر التعبير بـ (من وما) ورأيته يعبر بهما فى الموضع الواحد ، ويضع احداهما مكان الأخرى كما بينت لك من قبل ﴿**واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين**﴾ .

قال إبراهيم هل يسمعونكم (بعد أن قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) لتفهم بأنه يقصد بقوله من أقيمت لهم هذه الأصنام ، وإلا لقال لهم هل تسمعكم ، ثم ذكر أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، وبعدها ذكر فإنهم عدو لى إلا رب العالمين مما يشعرك أن إبراهيم يقصد الأصنام ومن أُقيمت بأسمائهم الأصنام ، وإلا لقال فإنها عدو لي (ولم يقل فإنهم لأن «هم» ضمير العقلاء) .

وهكذا يعبر فى الآيات التى تتناول قصة واحدة عن معبودى المشركين بما له من الألفاظ الدالة على العقلاء ، وبما له دلالة على غير ذلك لما سبق بيانه من أن المشرك يعبد بعبادة الولي الواحد آلهة متعددة ، منها : آلهة الصنم أو القبر الذى أقامه باسم الولي ، أو الستر فوق عبادته لآلهه الولي .

ومما سبق ذكره من بيان الأسباب التى وصفهم الله من أجلها بأنهم

عباد آلهة ، ومتخذو شركاء ، وعباد أصنام وأوثان وتماثيل - تؤمن ان ذلك كله ناتج عن عبادة الولي ، وأن الفتنة بالصالحين هى سبب الشرك .

فإذا ما رأيت اختلافا فى التعبير عما يعبده المشركون فذلك لاختلاف الاعتبارات وإلا فالشيء المعبر عنه واحد ، أما الاعتبارات التى اختلفت من أجلها التسمية لهؤلاء المعبودين من دون الله فإليك ما قاله الأستاذ عبد الرحمن الوكيل (فى كتابه دعوة الحق أيضا) :-

«فمعبودهم يوصف بأنه (ولي) باعتبار موالاتهم له بالدعاء وغيره ، وهذا هو الوصف الأصيل ، ويوصف بأنه (شريك) باعتبار انهم أشركوه فى العبادة مع الله ، وبأنه (إله) باعتبار أنهم ألهوه بكل معانى التأليه ، من عبادة وفزع إليه ، واستغاثة به ، ويوصف بأنه (وثن) أو (صنم) أو (تمثال) ، باعتبار المشاهد (الملموس) ، أو باعتبار ما أقيم باسم الولى المعبود ، ويوصف بأنه (طاغوت) ، باعتبار أنه أضلهم وأضلوا هم به ، وبأنه (شيطان) باعتبار أنه مصدر الاغراء بعبادة هذا المعبود . (٤ : ١١٧) ﴿**إن يدعون من دونه إلا اناثا وان يدعون إلا شيطانا مريدا**﴾ وصفها بالاناث وبالشيطان فى آية واحدة .

وقال الخليل عليه السلام لأبيه : (١٩ : ٤٤) ﴿**ياأبت لا تعبد الشيطان**﴾ ، ويوصف بأنه (ظن) باعتبار ما ظنوه فيه من نفع وضر ، وبأنه (هوى) باعتبار انهم انقادوا لأهوائهم فيه (١٠ : ٦٦) ﴿**وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، ان يتبعون إلا الظن ، وان هم إلا يخرصون**﴾ . (٥٣ : ٢٣) ﴿**ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾ (٤٥ : ٢٣) ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم**﴾ .

وتـوصف معبـوداتهم بأنهـا (أسماء) لا وجود لمسمياتها، باعتبار الحقيقة حيث سمـوهم أوليـاء، والله هو الولي، و(شفعاء) والله هو الذى يملك وحده الشفـاعـة (١٢ : ٤٠) **﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾** .

فلا يفتنـك المشـركون بكثرة الأوصاف فإنها لموصوف واحد. هو (غير) معبـود من دون الله، ولا باختـلاف التعـابير فالحقيقة المعبر عنها واحدة، ولا يعتـذر اليـوم للمشـركين معتذر بخرافة ان الجاهلية أشركت بعبادة الأصنام، وتسميتها بالآلهة، أما هؤلاء فإنما يدعون أولياء، فقد وضح الحق من القرآن مشرقا يبدد كل ما يطغى به الباطل من ظلمات .